١

الاشاريات في سورة الصافات دراسة تداولية

الهام ثابت نصار

بِسـمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيـمِ

المُقَدِّمَة

الحمدُ لله نحمُده، ونستعينُه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إله إلا اللهَ وحدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، سيدِنا، وحبيبنا، وصفوة خلق الله أجمعين، محمد بنِ عبدِ الله الصّادق الأمينِ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين، ومن سار على هديه ونهَج نهجه إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ:

فاللغة العربية لغة القرآن الكريم، أعتنى بها العلماء ، ولما نزل القرآن بها زاد تعلقهم بها ، وقد سخّر الله تعالى من عباده من خدم هذه اللغة ، وألفوا فيها كتب كثيرة ، فلولا مؤلفاتهم هذه ما وصلنا الى هذا المستوى من الفهم ، فدراسة " الإشاريات في سورة الصافات دراسة تداولية " ، ومعروف أن الخطاب اللغوي يعد بنية معقدة فهو يتكون من مجاميع من الإشارات والرموز والعلامات ، ومن جهة أخرى تساهم الأشاريات التداولية في فهم النصوص وفك رموز المعاني الضمنية بناءً على السياق الذي يحدث فيه الحوار، مما يجعلها أداة مهمة في تحليل الخطاب وتفسير التفاعلات اللغوية ، وتتمثل في عدد من المبهمات الإشارية ، كالضمائر ، وظروف الزمان والمكان.

وترجع أسباب اختياري لهذه الدراسة إلى :

- سبب اختياري لهذا الموضوع رغبتي في دراسة الإشاريات في الخطاب القرآني ، فطبيعةُ البحثِ وعنوانُ الموضوعِ قد جعلا الباحثَة تعتمدُ المنهجَ الوصفيَّ التحليلي الإستقرائي .

أمَّا في ما يتعلقُ بطبيعة دراستي هذه فقد رأيت أنَّ تقسم الرسالة على ثلاثةِ فصولٍ يسبقُها مقدمة، ويتلوها خاتمة:

فقد جاءت المقدمة: مبينة أهمية الموضوع، وعنوان البحث، وسبب اختيار العنوان، وذكرت فيها المنهج المتبع في الكتابة، وذكرت الدراسات المشابهة.

ومن ثم ختمت البحث بقائمة المصادر والمراجع، وكانت من أهم هذه المصادر هي:

أولاً: المعجمات: وفي مقدمتها العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، ومقاييس اللغة لأحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ).

ثانياً: كتب اللغة: ومن أهمها : الكتاب لسيبويه (١٨٠هـ) ، والمقتضب للمبرد (٢٨٥هـ) ، والمفصل لابن يعيش (٦٤٣هـ) .

ثالثاً : كتب التفاسير: وكان في مقدمتها جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٣١٠هـ)، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (ت ٥١٠هـ).

خامساً: كتب التداولية : وفي مقدمتها ، آفاق جديدة لمحمود أحمد نحلة ، ونسيج النص للأزهر الزناد ، واستراتيجيات الخطاب لعبد الهادي الشهري ، والمقاربة التداولية لجورج يورل .

أما بالنسبة لأهم الصعوبات التي قابلتني أثناء رحلتي في البحث ، والله يعلم أن الأمر قد أستنفذ مني الطاقة ، وبلغ مني الجهد ، فقد واجهت صعوبة في توظيف الإشاريات التداولية في السورة ، وذلك لأنها نظرية غربية ، وعطل الحاسبة مما أضطرني إلى إعادة الكتابة .

بعد شكر الله وحمده والثناء عليه، أود أن أعبر عن خالص امتناني وتقديري لأستاذتي الفاضلة الأستاذة الدكتورة ((سهاد محمد جاسم)) ، على إشرافها وتوجيهها السديد لرسالتي، مما ساعدني على إخراجها بهذه الصورة. ولا أدعي الكمال فيها، فالكمال لله وحده. فإن كان هناك أي خطأ أو نقص، فهو من نفسي ومن قصور عزيمتي. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تطورا واضحا في الدراسة اللسانية ، فكان من ثمرات هذا التطور الفكري واللغوي الحديث علوم بحثت في وظيفة اللغة وانفتاحها بين المتكلم والمخاطب ، فكانت الدراسة واسعة ، اذ بحثت المقاصد المعنوية وتأثيراتها في لغة التخاطب ، فدرست أسباب الخطاب وتفرعات معانيه ودلالاته ، وهي بذلك خرجت من النطاقات الضيقة المحدودة التي خطها علماء اللغة سابقاً في دراساتهم ، كعلوم الصرف ، والنحو ، والدلالة ، اذ بينوا على سبيل المثال الجمل وما فيها من المعاني المقابلة للإعراب كالفاعل والمفعول ، والمبتدأ والخبر ، وما الى ذلك من مراتب الإعراب ، وكذلك البنى الصرفية التي يتغير معناها بتغير حركات ما قبل الآخر.

وقد تناولت هذه العلوم الكلام المتداول بين المنشئ والمتلقي ، فدرس هذا الكلام المتداول بكل ابعاده السابقة واللاحقة والمتفرعة منه ، كذلك دلالاته المركزية والهامشية ، فكانت وظيفة اللغة المتداولة في هذه الدراسة اوسع مما وضعت له ، وقد أشار العالم

أوستن الى ان اللغة أوسع وأعمق من ان تكون وسيلة للتواصل والتفاهم ، فهي وسيلة للكشف أو التأثير والتعبير ووسيلة لتغيير السلوك الإنساني في تأثيرها في المتلقي وفي معرفة أبعادها[١]، وعلى سبيل المثال ، لو أننا سمعنا شخصاً يخاطب شخصاً آخر ، بقوله : (هل ما زال ابنك مريضاً ؟) ، فأجاب الشخص الثاني : (لقد شفي من مرضه وهو الآن بصحة جيدة ، شكراً على السؤال) ، لو أننا سمعنا هذا الحوار اللغوي البسيط ، لفهمنا منه الآتي :

١- إن الشخص الأول عنده علم سابق بمرض ابن الشخص الثاني ، وقد تأثر نفسياً بذلك مما دفعه الى السؤال عن صحته .

٢- إن هناك علاقة ودّية بين الشخص الأول والشخص الثاني فكان علمه بمرض ابه من جراء تلك العلاقة .

٣- إن المتلقي (الشخص الثاني) ، قد أجاب بانتهاء المرض .

٤- إن الشخص الثاني على علم بدراية الشخص الأول بمرض ابنه ، فلم يتفاجأ ، والّا لسأله : وما أدراك؟ .

٥- إن الشخص الثاني يشعر بالسرور والإرتياح للسؤال عن حالة ابنه المريض ، لذلك أجاب الشكر على السؤال .

٦- إن تأثير الكلام المتداول بين الشخصين ، واضحٌ في كليهما .

٧- هناك أبعاداً أخرى يطول الحديث فيها ، كاستنباط أن العلاقة بين الشخصين قديمة ، وليست حديثة ، لورود السؤال مباشرة ، ولعدم التكلف والمجاملة .

إن المثال السابق البسيط يوضح أبعاد التداول اللغوي من المنشئ والمتلقي وهذا من ثمار الدراسة الحديثة ، فقد اثمرت هذه الدراسة بثمرة علم فتح آفاقاً للعلوم والدراسات بكل أشكالها اللغوية والفلسفية ، وهذا العلم هو واضح جليّ، فعلم التداولية علم هام من علوم اللسانيات الحديثة ، وإن كان في تحديد هذا المصطلح (التداولية) شيء من الغموض ، وقد يرجع هذا الغموض الى عدم ترجمة المصطلح ترجمة دقيقة ، سواء

كانت عن الإنجليزية أو عن الفرنسية ، فالترجمة عن اللغتين فيهما اختلاف بسيط قد يذهب بالمقاصد بعيداً عن أصلها ، فالترجمة عن الإنجليزية دلالتها ترتبط بالوقائع ، والأفعال الكلامية ، أما عن الفرنسية فإن دلالة الترجمة تشير الى المحسوسات التي تلائم الحقيقة[٢]، وهذا قد يسبب اضطراباً في تحديد مصطلح التداولية المعنوي .

وقد ذكر بعضهم أن التداولية هي ترجمة لمصطلحين أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي ، وهما متقاربان جداً ، ومعناهما مذهب لغة التواصل الجديد ، او هوالعلم التواصلي الجديد الذي يفسر به اللغة وظواهرها المستنبطة دلالياً [٣] .

ومما سبق نرى أن الترجمة عن غير العربية الى العربية لها تأثير واضح في تحديد معنى المصطلحات وفي الكشف عن المعاني الإصطلاحية .

اولاً : التداولية لغة واصطلاحاً :

أ- التداولية لغةً : التداولية بوزن الفاعلية من (دَوَلَ) وفعلها (دال يدول) من الباب الأول ، وبصيغتها (التداولية) تدل على المشاركة ، وهذا ما يستنبط من المعجمات اللغوية ، فقد ذُكر ان التداول للشئ ، هو حصوله في يد أحدهم مرةً ، وفي يد آخر مرة أخرى ، والإسم هو (الدَولة) بضم الدال وفتحها ، ، وجمع ذات المضموم (دُوَل) بضم الدال وذات المفتوح (دِوَل) بكسر الدال ، ويقال : دالت الأيام مثل دارت الأيام وزناً ومعنى ، ومضارعهما مضموم العين[٤]وقد نقل عن العلماء آراؤهم في لفظة (تداول) ، ويقال : دواليك ، أي تداول بعد تداول وتداولت الأيدي الشيء ، أي أخذته هذه مرّة ، وتلك مرّة أخرى ، وقد وجد في القرآن الكريم :" وتلك الأيام نداولها بين الناس "[٥]، أي :نديرها ، لأن (دال) المعنى (دار)[٦].

مما يفهم من المعجمات اللغوية أن التداول هو انتقال الشيء سواء كان كلاماً أو غير ذلك من شخص الى آخر وبالعكس ، فهو مشاركة بين أشخاص ، ومما يؤيد ذلك ما جاء في حديث الدّعاء :" حدثني بحديث ، سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لم تتداوله بينك وبينه الرجال "[٧] ، أي : لم ينقل اليك بالتداول من رجلٍ الى رجلٍ ، فيصل اليك مداولةً ، بل أنت سمعته من رسول الله مباشرةً ، فترويه انت عنه "صلى الله عليه وسلم "[٨]

أما المعجمات الحديثة لـ(د،و،ل) ، فهناك تقارب معجمي وهناك تقاطع ، وقد وردت دلالات مستحدثة تبعاً لتطور الحياة ، فجملة : أدالوا الأمر ، أي جعلوه متداولاً ، وداولوه بينهم ، والمداولة في الحكم هوتأجيله الى ما بعد الدراسة والتشاور ، وداولوه بينهم جعلوه متداولاً لهؤلاء مرة ولأولئك مرةً أخرى(٩)

التداولية اصطلاحاً : لقد أشار العلماء العرب القدماء الى ما يعبر عن مصطلح التداولية ، لكن بغير هذه التسمية وهذا الاصطلاح ، فمصطلح التداولية مصطلح حديث قد ترجم عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، كما أشارت الباحثة في التمهيد .

لقد ظهر مصطلح التداولية كمصطلح يعنى بدراسة اللغة وأبعادها سنة (١٩٣٨) ، وقد وضعه الفيلسوف الأمريكي (شارل موريس) ، واستخدمه في دراسته وابحاثه ، فكانت التداولية عنده فرعٌ من ثلاثة فروع هي : علم التراكيب ، والدلالية ، والتداولية ، فعلم التراكيب يدرس التعابير والرموز ، والعلاقة بينهما .

أما الدلالية فهي دراسة الرموز وما تشير اليه والعلاقة بينهما .

واما التداولية فهي تعنى بدراسة أنظمة اللغة وعلاقتها بالمنشئ والمتلقي(١٠).

ويرى ليفنسون وهو باحث لساني ، أن التراكيب تهتم بدراسة الجملة والعلاقة بين مفرداتها أو الألفاظ التي تتألف منها كعلاقة المبتدأ بالخبر ، وعلاقة الفعل بالفاعل والمفعول به ، وكذلك بقية أجزاء الجملة من أشباه الجمل والصفات والأحوال ، ويرى أن علم الدلالة هو علم يبحث في المعنى وما تؤول اليه المعاني ، فالدلالة إما مركزية أو هامشية فيكون البحث الدلالي مستنداً الى هذين النوعين .

أما التداولية فإن ليفنسون يرى أنها العلم الذي يدرس العلاقة بين السياق واللغة ، وظواهر الخطاب وبنيته اللغوية وما تتضمن هذه البنية من أفعال الكلام ، وما تؤول اليه دلالات الخطاب ، في الكشف عن المعاني المستنبطة من سياق الكلام الخطابي ، فالتداولية تدرس استعمال اللغة ضمن سياق الخطاب من غير إهمال للمعنى والدلالة مع الأخذ بنظر الاعتبار ظروف الكلام بين المتخاطبين ومقاصدهم ، وسياقه ومقامه

وحالته ، وكل العناصر المرتبطة به كدوافعه السابقة ، ومعانيه اللاحقة ، وما يقصده المنشئ وما يفهمه المتلقي .[١١]

ويشير اللساني إيلوار الى أن التداولية هي مجموعة من المقاربات المشتركة في معالجة القضايا اللغوية بثلاثة معطيات لها الدور الفعال في عملية التخاطب ، وهذه المعطيات هي المتخاطبين ، وسياق كلامهم ، واستعمالات الكلام العادي ، يومياً في اللغة المستعملة في واقعها[١٢]، لقد ركز إيلوار على عناصر التخاطب الثلاثة في تعريفه للتداولية ، ويمكن القول : إنها عناصر التداولية ، فالمنشئ والمتلقي وسياق الخطاب ودوره في رسم المعنى وتحديد أبعاده هي عناصر تحقيق التواصل التخاطبي وهوما تشتمل عليه النظرية التداولية ، وإن من أهم هذه العناصر الثلاثة هو السياق ، لأنه عملية الإنتاج اللغوي ، والإنشاء ، وهو يخضع لعوامل سابقة وظروف نفسية أدت الى انتاج الكلام وإنشائه ، ولا يمكن تحديد صور الملفوظات المعنوية إلا إذا كانت تلك الألفاظ محددة بسياق معين بين المتخاطبين ، من أجل فهم المعاني وتحديد الصور الفكرية ، ولا يمكن فهم المعاني بوضوح الا من سياق الكلام ، لأن المعاني والصور الفكرية هي الثمرة الحقيقية التي ينتجها السياق اللفظي ، وهذا فوق ما تعنيه اللغة على حقيقتها الوضعية ، لأن للسياق اللغوي في الإستعمال مع بواعثه وحالة التخاطب ومقام المتخاطبين له دور اكبر من اللغة في حالة إغفال السياق ، فمستعمل اللغة هو الذي يتحكم في معاني الألفاظ بانتقاء الألفاظ وترتيبها والإشارة الى معانيها ، وهذا لا يكون في اللغة المجردة ، لذا فإن العناصر التي حددها إيلوار في التداولية ، هي عناصر متكاملة لا يستغنى عنها ، لأنها عناصر التواصل الخطابي ، وهي عناصر التداولية.[١٣]

لقد اتفق الباحث ج.بول مع إيلوار في تعريف التداولية ، فهو يعتبرها دراسة استعمال اللغة في التخاطب والتواصل ، ويرى أن المعنى ليس أصلاً في الألفاظ مفردة ، وليس للمعنى ارتباط بالمتكلم وحده ، ولا بالمخاطب وحده ، بل المعنى يرسم في تداول الألفاظ والتراكيب ضمن السياق بين المتخاطبين في الحدود اللغوية والإجتماعية والنفسية والمادية ، لإظهار المعنى المستقر في الكلمات اللغوية.[١٤]

ويرى الباحث اللساني (فان دايك) أن التداولية هي علم يبحث في الأفعال الكلامية وتحليلها ، والكشف عن أهميتها ومعرفة أنواعها وأثرها الذي تتركه في المتخاطبين ، وهي علم يبحث في وظائف المنطوقات اللغوية وصفاتها وحالاتها في عملية التخاطب ، علماً أنه اعتبر أفعال الكلام ونظرية البحث فيها من أهم أسس التخاطب التي تقوم عليها التداولية في البحث والدراسة والإستنتاج.[١٥]

مما تقدم من آراء اللسانيين ومعطياتهم حول التداولية يمكن أن نجد معنى اصطلاحي لها وتعريف يشمل الآراء المطروقة وهو: أن التداولية هي دراسة لغة للخطاب المتداول بين المنشئ والمتلقي وما بينهما من سياق لغويّ ، مع الأخذ بنظر الإعتبار دوافع السياق اللغوي والنغم الكلامي المصاحب للسياق ، وأثر الخطاب في المنشئ والمتلقي وأبعاد الخطاب المتداول اجتماعياً وفكرياً ونفسياً باعتبار حالتهما وحالة السياق والفكرة الأساسية له ، وتحديد أبعاد الكلام ودلالاته القريبة والبعيدة والمستنبطة من إشاريات الخطاب ، بعد النظر في حالات ركائز التداولية الثلاث وهي : المخاطِب بكسر الطاء والمخاطَب بفتح الطاء والسياق اللغوي الدائر بينهما .

التداولية عند العرب قديماً وحديثاً : لقد عرف علماء اللغة العرب التداولية بأبعادها وأشكالها وأجزائها ، وكتبوا عن ذلك بإطناب وإسهاب ، لكنهم لم يذكروا مصطلح التداولية بهذا المسمى ، فالجاحظ (٢٥٥هـ) ، يرى أن للكلام فضائل باهرة وللمنطق مناقب ظاهرة ، وله خلال مألوفة ، وخصال معروفة ، وبه تؤدى المقاصد وتظهر الشواهد[١٦]، وهو يعتبر أن القلب هو صندوق الأسرار ، وخزانة الخواطر والأفكار[١٧]، وأن مدار التخاطب والتحاور قائم على البيان والتبيين وعلى التفاهم بين المتكلم(المنشئ) والسامع(المتلقي) ، فالمفهِم(المنشئ) ، والمتفهم(المتلقي) شريكان في العملية الحوارية ، وكلما كان الكلام بيناً واضحاًكان ذا عاقبة محمودة في الفهم والبيان ، وقد فضّل الجاحظ المفهمعلى المتفهم ، والمعلم على المتعلم بعد أن صرح بأنهما شريكان في الفضل[١٨].

وقد قسم الجاحظ أدوات البيان الخطابي في الكلام الحواري الى خمسة أصناف، هي : اللفظ ، والإشارة ، والعقد(يقصد به الحساب الدلالي) ، والخطّ ، وآخرها الحال الذي

أطلق عليه اسم النصبة وهي الحال والدلالة التي تقوم مقام أدوات البيان الأربع المذكورة ، وقد وضح أن البيان هو إيضاح المعنى وكشف الصور التي يرسمها المعنى وتظهرها الدلالات ، وذلك يجري بين القائل والسامع ، وكل معنى في موضعه بعد أن تستوعب المعاني المقصودة في الألفاظ المتركبة[١٩] فهذه الألفاظ هي التي تكشف عن المعاني القائمة في صدور الناس المتصلة بخواطرهم التي تحدث عن فكرهم ، فهي وهذه المعاني هي سور في اذهانهم تتخلج في نفوسهم ، وهي مستور تكشفها الألفاظ المتداولة سواء كانت مكتوبة أو منطوقة ، والمنطوقة هي التي تدور بين المتحاورين[٢٠].

ويبين الجاحظ أن لكل أداة من تلك الأدوات الخمس التي عليها جميع أصناف الدلالات ، لكل أداة منها صورة تختلف عن صورة الأداة الأخرى ، فالأداة الأولى هي اللفظ وهو الذي يكشف عن المعنى ، والأداة الثانية هي الإشارة التي واللفظ شريكان في كشف المعاني " فنعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما اكثر ما تنوب عن اللفظ ... ولولا الإشارة"[٢١]، لما تفاهم الناس ولما عرفوا معنى الخاص الخاص ، وقد ذكر أبياتاً يوضح فيها دلالات الإشارة ، منها قول عمر بن أبي ربيعة:

" أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنتُ أن الطرف قد قال : مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيمِ"[٢٢]

وقد ذكر أبياتاً كثيرة في تعزيز نظريته في إفادة الإشارة وكشفها عن المعاني ، منها :"

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من الشناءة ، أو وداً واذا كانا

فالعين ينطق والأفواه صامتةٌ حتى تري من ضمير القلب تبياناً"[٢٣]

"هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ... والصوت هو آلة اللفظ"[٢٤] ، وقد بين الجاحظ أن الألفاظ المنطوقة وتأليفها في تراكيب مع حسن الإشارة بالرأس والأكتاف والعين واليد ، وما يرى من المتكلم من الميل ، والتفتل ، وغير ذلك من الإشارات يرى انها من حسن البيان والإيضاح بل هي من تمام البيان[٢٥].

وقد تكلم الجاحظ عن الخط ومزاياه وبين فضله وعطاياه ، وتكلم في العقد وهو الحساب ، وكأنه أراد به الإدراك ، وما يؤول اليه العقد والقصد ، فلولا الحساب ومعرفة معناه من الناس في الدنيا لما فهموا معنى الحساب في الآخرة ، والحساب يشتمل على كثير من الفوائد والمنافع لمعرفة الأسباب والدوافع ، فهو يقوم مقام الألفاظ والإشارات ، بعد إظهار المقصود من المعنى المنشود ، فالجهل بالحساب فسادٌ لكثير من الأمور التي جعلها الله مصلحة للعباد ، واعماراً للبلاد.(٢٦)

وأما النصبة فهي الحال التي تنطق بلا لفظ وتشير بغير يد ، فهي تصورالعقل واستيعاب الفكرة من الألفاظ ومعرفة الدلالات ، فهي الإعتبارات القائمة والمستنبطة من سياق الكلام المتداول ، وقد بين الجاحظ ذلك بعد أن أورد شاهداً عليها وهو قول عنترة بن شداد:

"حرق الجناح كأن لحيي رأسِهِ جلمانِ ، بالأخبار هشٌ مولعُ"(٢٧)

ولو نظرنا الى استعمال الألفاظ في هذا البيت لوجدناها إشارات وبيانات للأحوال ، فقوله : حرق الجناح ، أي متناثر الريش متساقطة ، وقد وصفه بذلك تطيراً به ، ثم أنه شبّه منقاره بالجلمين وهما القاطعان في المقص ، وخصّ التشبيه بالجلمين ، لأنه يقطع ويفرّق بنعيبهِ كما يقطع الجلمان(٢٨).

مما تقدم نفهم أن الجاحظ قد أشار الى التداولية بكل اشكالها وانواعها ، بل وصرّح باعتباراتها اللفظية والإشارية والدلالية ، فهو بتحدثه في أدوات البيان وشرحه لتلك الأدوات الخمس إنما تحدث ، وبيّن أدوات التداولية وأبعادها وروابطها ، وقد صرّح بركائزها الثلاث (المنشئ، والمتلقي، والسياق الكلاميّ) ، بل وزاد على ذلك بأن أورد الأحوال والإشارات التي تساهم في فهم السّياق وتحديده .

وخلاصة القول : إن الجاحظ فهم التداولية بكل أنواعها واشكالها ، لكنه لم يصرّح بالمصطلح .

ولقد تكلم الجرجاني عبد القاهر(٤٧١هـ) بعد الجاحظ عن الكلام وما يؤول إليه ، وما يدفع الى قوله ، وذلك في باب اللفظ والمعنى ، وفي باب اقسام الكلام المدوّنة ، واذا

استعرضنا كلامه عن الألفاظ والمعاني ، لوجدنا أنه قد أشار الى التداولية من غير أن يصرّح بالمصطلح ، فذكر أن الكلام هو الذي يعطي منازل العلوم ، ويبين المراتب ، ويكشف عن الصور ، ويجني من المعاني الثّمر، ويدل على السّرائر، ويبرز مكنون الضمائر ، ولولا الكلام لما عرف شيء من المعاني ، سلباً وايجاباً[٢٩]فإن ألفاظ الكلام ليس فيها فائدة إذا لم تتألف وتترتب لتعطي المعاني ، فيعمد فيها الى تركيب وترتيب ليعطي معنى غير الذي يعطيه في حالة تغيير الترتيب والتركيب [٣٠]، واستشهد ببيت امرئ القيس:(قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل) ، فلو غيرت ألفاظه المرتبة في تركيبها ، لأخرجته عن المعنى المقصود، والتصوير المنشود ، فالاختصاص في الترتيب للألفاظ يعطي ترتيباً للمعاني ، ونسقاً للصور التي تترتب في النفس [٣١]، (فإن أرأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً... فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوالٍ ترجع الى أجراس الحروف ، والى ظاهر الوضع اللغوي ، بل الى أمرٍ يقع في المرء في فؤاده ، وفضلٍ يقتدحه العقل من زناده)[٣٢]

وقد استعمل الجرجاني لفظة يتداولون في وصفه للالفاظ ، فقال:(وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم)[٣٣]، فنرى أن تداول الكلام عندهم معروف ، وله في تصورهم ثلاث ركائز ، هي: المنشئ ، والمتلقي ، والسياق ، وهذه هي ركائز التداولية .

أما في كتابه دلائل الإعجاز ، فقد تكلم في تحقيق القول في البلاغة والفصاحة عن القائلين والسامعين وعن كلام القائلين وإخبارهم السامعين ، وعن المقاصد والأغراض وما في نفوسهم وضمائرهم ، وأنه لا شرف للالفاظ بدون معنى ، وأن العبارات لها دلالات ، تكشف عمّا في النفوس والضمائر ، فترسم صور المعنى[٣٤]، فيؤدي بها المعنى من إخبار ونهي وأمر واستخبار وتعجب ، ويؤدي في الجمل بعد ضمِّ الألفاظ بعضها الى بعض جميع المعاني التي يريدها المنشئ[٣٥].

وقد تكلم عن الخبر وما يستوجبه ، وبيّن أنّ الخبر لا يكون خبراً حتى "يكون مخبربه ، ومخبر عنه ، لأنه ينقسم الى اثبات ونفي ، والإثبات يقتضي مثبتاً ، ومثبتاً له ، والنفي يقتضي منفياً ومنفياً عنه"[٣٦]، وتكلم عما يستوجبه الخبر ، وما يحذف منه بعد

التصور وإدراك المعنى ، وهو بذلك قد تكلم عن دوافع الكلام السابقة وعما يؤديه من معنى في اللاحق ، وأوضح أن للخبر أغراضاً ومقاصد ، تنشأ في نفس الإنسان وتتصرف في فكره ، وهو بهذا تحدث عن الدوافع النفسية للكلام[٣٧]، وتكلم عن اثبات الدلالة ونفيها ، وضرب لنا مثلاً على الإثبات :(زيدٌ عالم) ، وعلى النفي :(زيدٌ ليس بعالمٍ) ، فالأول إثبات العلم والثاني نفي العلم[٣٨]، وذكر أن العلم بمقاصد المتحاورين علم ضرورة وأن هناك مخبراً وسامعاً ، وبينهما حوار وله دلائل ومدلولات يفهمها السامع ويقصدها المخبر[٣٩].

أما السكاكي(٦٢٦هـ) ، فقد تحدث عن أقسام التداولية وأفرعها وركائزها في معرض كلامه عن الخبر والإنشاء في علم المعاني ، فيذكر الخبر على مقتضى الظاهر ، ويذكره في خروجه عن مقتضى الظاهر ، وخروجه لأغراض مجازية ، ووضح أن الخبر هو ما يحتمل الصدق أوالكذب ، وذكر أن الكلام له دوافع وله مقاصد ، وأورد أمثلة كثيرة على ذلك ، وكذلك تكلم عن طرفي الحوار المتداول ، وهما: المتكلم والسامع(المنشئوالمتلقي) ، وفصل تفصيلاً بديعاً عن أحوال المسند والمسند إليه، وهما ركنا الكلام ،بهما تقام الجمل ، وقد أوضح في هذا الفصل أن مقتضى الحال يتفاوت عندالمتكلم ، وقد فصل ذلك التفاوت .

وخلاصة القول أن السكاكي كان واضحاً في اشاراته الى معنى التداولية ، بل فصل الكلام المتداول تفصيلاً أحاط به أنواع الكلام والمقاصد ، وضرب أمثلة كثيرة ، وأورد قصصاً بيّن فيها مقاصد المتحاورين ، وقصصاً في ثناياها عبرٌ ، واشارات واضحة الى التداولية ومعناها ، وما يتعلق بها[٤٠].

وخلاصة القول مما أوردته الباحثة من آراء علماء اللغة والبيان في القرن (الثالث والخامس والسابع) الهجرية ، خلاصة القول :إنهم كانوا يعرفون أبعاد الحوار ، وكان لهم تصوّر عن التداول الكلامي وعن التحاور والتخاطب ، إلا أنهم لم يصرحوا بمصطلح التداولية ، علماً أنهم كانوا يذكرون فعل التداول ، مثل :(تداول ، يتداول ، ، وغيرها) وهم بهذا وقفوا عى حدود التداولية وأبعادها ، وارتباطها بالعلوم الأخرى مع الأخذ بنظر الاعتبار المسميات العلمية في وقتهم آنذاك .

فالجاحظ يشير في تقسيمه أصناف الدلالات في البيان والتبيين الى عملية الإقناع والتفهيم والتأثير في السامعين ، فالاصناف الخمسة(اللفظ، والاشارة ، والعقد والخط والحال) ، ماهي الا وسائل للإبانة والفهم في التداولية ، لأنها ذات أدوار فعالة في التواصل الإنساني للعملية الكلامية التداولية ، فهي وسائل إيضاح تكشف مافي النفوس وتعرف بالحالات أياً كانت(٤١).

أما الجرجاني فقد تحدث عن النظم والسياقات في النظم وهو بذلك قد خرج من بلاغة الجملة الواحدة الى بلاغة الجمل مجموعة في السياق ، وقد شمل ركائز التداولية من منشئ وسياق ومتلقي في كلامه عن النظم ، فرصد العلاقات في تناسبها وانسجامها ومدلولاتها وفق مقتضيات العملية التواصلية ، آخذاً بنظر الإعتبار وحدة الغرض وصور المعنى ودوافع الكلام ونتائجه ، وهو بهذا الحديث في النظم قد تجاوز دراسة النحو والبلاغة بشكلها التقليدي الذي يبحث في الجملة مستقلة عن بقية الجمل الى السياق الذي يضم مجموعة من الجمل ترتبط ببعضها البعض موضحاً فيها التماسك النحوي ، بالفصل والوصل ، والعطف والإستئناف ، والإثبات والحذف ، وهذه قواعد قد أشار اليها لغويون محدثون ونبهوا عليها ، أمثال فان دايك ، ورقية حسن ، وهاليدي وآخرون(٤٢).

لقد بحث الجرجاني في مؤلفيه(دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) بحث معايير البلاغة على أساس دلالي يحكمه السياق المتداول بحسب المعاني التي تعطيها التراكيب مجتمعة في السياق ، فتعرف فيها المقاصد في نظمها وتفهم الدوافع التي أدت الى النظم بطريقة تختلف باختلاف الدوافع ، ولم يغفل الجرجاني عن الترتيب النحوي للسياق عموماً ، بل ربط علم البلاغة بعلم النحو ، وقد جعل المعنى هو الشاهد على المقاصد(٤٣).

لقد عالج الجرجاني في مؤلفيه الوظيفة الكلامية سواء كانت شعرية أو نثرية ، وقد غلب الشعر على النثر ، فقد عالج الوظيفة الكلامية معالجة فلسفية أحاطت بركائز التداولية إحاطة كاملة ، في بحثه في السياق ، والأسباب والدوافع النفسية التي تكمن في نفوس المنشئين بحسب طبيعتهم البشرية ، فأشار الى قصد المتكلم ، بكل ما فيه

من دوافع وأسباب ، وملابسات سياقية ، مبتدئاً من مناسبة النص السياقي ماراً بالتراكيب السياقية ومقاصدها منتهياً بآثارها(٤٤) .

أما السكاكي فقد وضع منهجاً لتحليل العبارات اللغوية منطلقاً من لفظها ، ماراً بالتراكيب متجهاً نحو المعنى ، وهو ما سماه بعلم الأدب ، ومنهجه يقوم على ثلاثة مستويات هي مستويات التداولية ذاتها ، وهي مكوناتها .

أما المستوى الأول فهو مستوى المفرد الذي يقوم على ثلاث ركائز هي : الصوت ودلالته ، والصرف ودلالته ، والمعجم ودلالته ، وهذه الركائز هي التي تقوم عليه اللفظة المفردة ، قبل ان تدخل في سياق التركيب .

أما المستوى الثاني فهو التركيب ، وهو جمع المفردات في المستوى الأول ، وضمها مع بعضها البعض لتكون جملاً وتراكيب يعرف منها المسند والمسند اليه ، كالفعل والفاعل والمبتدأ والخبر ، وعموم الأسماء والأفعال وما يربطها من حروف وأدوات ، وهنا تعرف المعاني المقابلة للإعراب كالفاعل والمفعول وغيرها ، وهذا المستوى يأتي بعد المستوى الأول(مستوى المفرد) لزوماً.

أما المستوى الثالث فهو مستوى المطابقة الدلالية ، وهو ما يحدد مطابقةالتركيب لمقتضى الحال مع الأخذ بنظر الإعتبار القرائن والمقامات ، كالأمر ، والنهي ، والنفي ، والإستفهام ، والترجي والتمني ، وغيرها فيعرف منها الدعاء ، والألتماس ، والأمر ، بحسب مقام المنشئ ومقام المتلقي ، وكذلك تعرف أبعاد الخطاب التداولي ودوافعه بحسب أحوال أحوال المتخاصمين ومقاماتهم .

لقد وضع السكاكي هذه المستويات الثلاثة على أساس فلسفي منطقي تداولي ، فقد بدأ باللفظة المفردة من الصوتالذي يقطع آلياً فينتج عنه الحرف ، فيضم الحرف الى الحرف ، فتنتج عنه اللفظة التي تشتمل على أصوات المد القصيرة وهي الحركات التي تدخل في بنية الكلمة فتتصرف على هذا الأساس لتعطي المعنى المعجمي للفظة ، فشمل في اللفظة الصوت والصرف والمعجم ، بعد ذلك تضم اللفظة الى اللفظة لتكون جملاً وتراكيب يفهم منها المعنى ثم بعد ذلك تعرف المقامات والأحوال ، فتأتي التراكيب

مطابقة لمقتضى الحال ، وهو بهذا جمع علمي المعاني والبيان ، ففي المستويين الأول والثاني بسط علم المعاني ، وفي المستوى الثالث شمل علم البيان[٤٥]، وقد اقترح الدكتور أحمد المتوكل أن توضح(المسطرة التي ينتهجها السكاكي في تحليل العبارة اللغوية بواسطة الترسيمة)[٤٦]، فكانت الترسيمة التي وضعها على النحو الآتي بتصرف الباحثة :

(أصوات ، صرف ، معجم) ـ المفردات ـ(النحو) ـ (المركب) ـ(المطابقة) المعاني ـ المعنى الأصلي ـ (البيان) ـ المعنى الحيالي(الذي يؤخذ فيه الأحوال والمقامات) ، والدوافع والتأثيرات[٤٧] .

بعد أن نظرنا في التداولية عند أهل اللغة والبيان في القرن(الثالث والخامس والسابع)الهجرية لنرى مدى تطابق الآراء ومدى اختلاف وجهات النظر فيما يشير الى التداولية في تلك القرون الثلاثة ، لا بد للباحثة أن تنظر وتقلب في آراء المحدثين من أهل اللغة واللسانيات أمثال د.طه عبد الرحمن ود.أحمد المتوكل ، بما يسمح به مجال البحث التداولي .

مناهج البحث التداولي وقضاياه :

يستعمل في البحث التداولي مناهج متعددة ، وذلك لإشتغاله بقضايا عديدة ، تدخل في بؤرة موضوعات التداولية ، فالمناهج المستعملة هي :

١- المنهج الوصفي : وهو استعمال الألفاظ التداولية كما وردت من الموروث اللغويّ، وقضاياه تهتم بوصف علاقات المعطيات الملفوظة داخل اللفظة وداخل التركيب الذي يربط العلاقات اللفظية مع بعضها ، ويمكن ان يكون لهذا النوع من التداوليات ، وهو التداولية اللفظية وتندرج تحت المنهج الوصفي .

٢- المنهج المعياري : وهو استعمال المعايير اللغوية التي وضعت لتحديد اللغة في حدود معينة لإتمام العملية التخاطبية للظهور كأفعال لغوية خاصة[٤٨]

الخاتمة :

من خلال هذه الدراسة تم الوصول إلى عدد من النتائج وهي كالتالي :

– تعد التداولية مؤثراً حقيقياً وتنظيراً منهجياً، أثرت بشكل كبير في الدراسات اللغوية. وقد تجلى هذا الأثر بوضوح في مبحث الإشاريات وتداوليتها، مما يفتح أمام الباحثين في بناء الخطاب وإحكامه آفاقاً متعددة، تمكّنهم من استكشاف جوانب ثرية في هذا المجال.

– الإشاريات هي عناصرلغوية ، تربط بين جوانب النص وتعزز من تماسكه، فإذا كانت فكرة النص أو الكلام أو الخطاب هي الأساس، فإن الإشاريات تُعد من الروافد التي تضيف له المتانة والإتقان، وتشكل أركاناً تُحدث تناغماً يفضي إلى دلالات أعمق من المعاني الظاهرة. فالإشاريات، رغم كونها خفية وغير ظاهرة كما يظهر غيرها، إلا أن أثرها في توجيه الخطاب وتحديد مساره كبير ومهم ، وخلال هذه الدراسة تبين أن السياق القرآني استخدم ضمائر إشارية متنوعة في السورة ، تمثلت في الضمائر الدالة على المتكلم ، والمخاطب ، والغائب .

– أما النداء فقد استخدم الأداة ((يا)) فقط في مواضع مختلفة مع اختلاف المرجع الذي تشير إليه من خطاب لآخر ، واستخدم الفعل الصريح ((نادى)) مرة واحدة فقط .

– أما الإشاريات الخطابية فقد ساهمت في بيان مواقف المتكلمين ، فقد استخدم السياق القرآني في السورة حرف العطف ((بل)) ، الدالة على الإضراب ، كإشارية خطابية ، كما أن

– الاشاريات الاجتماعية، أو المؤشرات الاجتماعية، تلعب دورًا هامًا في تأسيس العلاقة الاجتماعية بين طرفي العملية التخاطبية. هذه الاشاريات تشمل العديد من العناصر التي تساهم في فهم السياق الاجتماعي والنيّات والتوقعات بين المتحدثين. من خلال استخدامها، يمكن للمتحدثين بناء استراتيجيات تواصلية تعزز التضامن والتفاهم المتبادل.

هناك عدة عوامل تتحكم في استخدام الاشاريات الاجتماعية، من بينها: سلطة المرسل إليه ، علاقة المرسل بالمرسل إليه ، مكان الخطاب ، من خلال فهم واستخدام هذه الاشاريات بشكل فعّال، يمكن للمتحدثين تعزيز علاقاتهم الاجتماعية وتجنب سوء الفهم والنزاعات.

المصادر والمراجع

- نظرية الأفعال الكلامية ، أوستن ، ترجمة : عبدالقادر فنيني ، الدار البيضاء ، المغرب ، أفريقيا الشرق ، ط١
- التداولية من أوستن الى غوفمان، فيليب بلانشيه ، ترجمة صابر الحباشة ، دار الحوار ، سورية – اللاذقية ، ط٢٠٠٧

- التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية ، في التراث اللساني العربي ، د.مسعود صحراوي ،دار الطباعة بيروت ، ط١/٢٠٠٥/
- تاج العروس من جواهر القاموس ، ج٢٨ ،
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، الجزري ، ط١ ، ج٢، ١٤٠ مادة (دول)
- اللغة والمعنى والسياق ، جيفري ليتش وجيني توماس ، ترجمة محيي الدين حميدي وعبدالله الحميدان ، جامعة الملك سعود ، الرياض ،المجلد١، ١٧٣ ، و: المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو،
- الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ادريس مقبول ،
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، ط٢، ٢٠٠٢ ،
- المناهج اللغوية الحديثة وأثرها في تدريس النصوص بمرحلة التعليم الثانوي ، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة ، ٩٥
- الرسائل الأدبية ، الجاحظ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط٢،
- شعر عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب ، ط١، ١٩٧٦م/
- المقاييس البلاغية عن الجاحظ في البيان والتبيين ، ١٢٤/٢٠٠٥
- البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها ، محمد العمري ، ٤٠٩/١٩٩٩
- المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والإمتداد ، د.أحمد المتوكل ، ط١،٢٠٠٦م،
- اللسان والميزان أو العقلي ،د.طه عبد الرحمن ، ط١، ١٩٩٨/
- تحديد المنهج في تقويم التراث ، د.طه عبدالرحمن،ط٢ ، ١٩٩٣،
- اللسانيات الوظيفية ، د.أحمد المتوكل ، ط٢/٢٠١٠
- الوظائف التداولية في اللغة العربية ، د.أحمد المتوكل ، ط١، ١٩٨٥

(١) ينظر : نظرية الأفعال الكلامية ، أوستن ، ترجمة : عبدالقادر فنيني ، الدار البيضاء ، المغرب ، أفريقيا الشرق ، ط١، ١٩٩١م/ ٦

(٢) ينظر : التداولية من أوستن الى غوفمان، فيليب بلانشيه ، ترجمة صابر الحباشة ، دار الحوار ، سورية – اللاذقية ، ط٢٠٠٧ ، ١٧

(٣) ينظر : التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية ، في التراث اللساني العربي ، د.مسعود صحراوي ،دار الطباعة بيروت ، ط١/٢٠٠٥/ ١٥

(٤) ينظر : لسان العرب : ابن منظور ، ٢٠٣-٢٠٤

(٥) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس ، ج٢٨ ، ٥٠٧-٥١١
(٦) آل عمران : آية ١٤٠
(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر ، الجزري ، ط١ ، ج٢، ١٤٠ مادة (دول)
(٨) ينظر المصدر السابق : ج١٤٠/٢
(٩) ينظر : المعجم الوسيط ، ط٢، المجلد ١، ٣٠٤-٣٠٥
(١٠) اللغة والمعنى والسياق ، جيفري ليتش وجيني توماس ، ترجمة محيي الدين حميدي وعبدالله الحميدان ، جامعة الملك سعود ، الرياض ،المجلد١، ١٧٣ ، و: المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو، ٣٠
(١١) ينظر : الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه : ادريس مقبول ، ٢٦٤-٢٦٥
(١٢) ينظر : مبادئ في اللسانيات ، خولة طالب الإبراهيمي ، ١٧٦-١٧٧
(١٣) ينظر : استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، ٢٢-٢٣
(١٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، ط٢، ٢٠٠٢ ، ١٤
(١٥) ينظر : المناهج اللغوية الحديثة وأثرها في تدريس النصوص بمرحلة التعليم الثانوي ، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة ، ٩٥
(١٦) ينظر: الرسائل الأدبية ، الجاحظ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط٢، ٣٠١
(١٧) ينظر : المصدر السابق ، ٨٩
(١٨) ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ ، ٣٤
(١٩) ينظر : المصدر نفسه ، ٨٢
(٢٠) ينظر : البيان والتبيين ، ج١ ، ٨٣
(٢١)ينظر: المصدر السابق ، ٨٣
(٢٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ط٣١١/١٩٩٦/٢
(٢٣) شعر عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب ، ط١، ١٩٧٦م/٨١
(٢٤) البيان والتبيين : ٨٤
(٢٥) ينظر المصدر السابق ،ج٨٦/١
(٢٦) ينظر: البيان والتبيين ، ج٨٥/١
(٢٧) شرح ديوان عنترة : الخطيب التبريزي ، ط٩٤/١
(٢٨) ينظر: البيان والتبيين ، ج٨٦/١
(٢٩) ينظر: أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ٣
(٣٠) ينظر: المصدر نفسه ، ٤
(٣١) ينظر :أسرار البلاغة ، ٥
(٣٢) المصدر السابق: ٥-٦
(٣٣) اسرار البلاغة : ٦
(٣٤) ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني ، الجرجاني ، ط١٩٩٣/٣
(٣٥) ينظر : المصدر السابق ، ٤٣-٤٤
(٣٦) ينظر : المصدر السابق، ٥٢٧
(٣٧) ينظر: دلائل الإعجاز ، ٥٢٨
(٣٨) ينظر : المصدر نفسه ، ٥٢٩
(٣٩) ينظر: دلائل الإعجاز ، ٥٣٠
(٤٠) ينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي ، ط٢، ١٩٨٧، ١٦٣-٣٢٤
(٤١) ينظر: المقاييس البلاغية عن الجاحظ في البيان والتبيين ، ١٢٤/٢٠٠٥
(٤٢) ينظر: في اللسانيات ونحو النص ، إبراهيم خليل ، ط٢٣٦ ،٢٠٠٧/١
(٤٣) ينظر: المصدر السابق ، ٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥
(٤٤) ينظر: البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها ، محمد العمري ، ٤٠٩/١٩٩٩
(٤٥) ينظر: المنحنى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والإمتداد ، د.أحمد المتوكل ، ط١،٢٠٠٦م، ١٨١-١٨٢
(٤٦) المصدر السابق: ١٨٢
(٤٧) ينظر: المصدر نفسه ، ١٨٣
(٤٨) ينظر: المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو، ١٩٨٦م/٧-٨